

تفسير ابن كثير

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ

يقول تعالى : فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل ،
بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه ، أو أكثرهم كما قال تعالى : (
يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) [يس : 30] ، (كذلك
ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) [الذاريات : 52] ، (
وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا
على آثارهم مقتدون) [الزخرف : 23] وفي الحديث الصحيح : " عرض علي الأنبياء ،
فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس ، والنبي معه الرجل والنبي معه الرجلان ، والنبي
ليس معه أحد " ثم ذكر كثرة أتباع موسى ، عليه السلام ، ثم ذكر كثرة أمته ، صلوات
الله وسلامه عليه ، كثرة سدت الخافقين الشرقي والغربي . والغرض أنه لم توجد قرية آمنت
بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى ، إلا قوم يونس ، وهم أهل نينوى ، وما كان إيمانهم

إلا خوفا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم ، بعد ما عاينوا أسبابه ، وخرج رسولهم من بين أظهرهم ، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به ، وتضرعوا لديه . واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم ، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم . فعندها رحمهم الله ، وكشف عنهم العذاب وأخروا ، كما قال تعالى : (إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) . واختلف المفسرون : هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الديني ؟ أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط ؟ على قولين ، أحدهما : إنما كان ذلك في الحياة الدنيا ، كما هو مقيد في هذه الآية . والقول الثاني فيهما لقوله تعالى : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين) [الصافات : 147 ، 148] فأطلق عليهم الإيمان ، والإيمان منقذ من العذاب الأخروي ، وهذا هو الظاهر ، والله أعلم . قال قتادة في تفسير هذه الآية : لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب ، فتركت ، إلا قوم يونس ، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم ، قذف الله في قلوبهم التوبة ، ولبسوا المسوح ، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجوا إلى الله أربعين ليلة . فلما عرف الله منهم

الصدق من قلوبهم ، والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف الله عنهم العذاب بعد أن
تدلى عليهم - قال قتادة : وذكر أن قوم يونس كانوا بنينوى أرض الموصل . وكذا روي عن
ابن مسعود ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف ، وكان ابن مسعود
يقرأها : " فهلا كانت قرية آمنت " . وقال أبو عمران ، عن أبي الجلد قال : لما نزل بهم
العذاب ، جعل يدور على رؤوسهم كقطع الليل المظلم ، فمشوا إلى رجل من علمائهم
فقالوا : علمنا دعاء ندعوا به ، لعل الله يكشف عنا العذاب ، فقال : قولوا : يا حي حين
لا حي ، يا محيي الموتى لا إله إلا أنت . قال : فكشف عنهم العذاب . وتمام القصة
سيأتي مفصلا في سورة الصافات إن شاء الله .